قصائد من العراق

. سامي مهدي* .

أبناء إيننّا

هيَ نجمةٌ في الارضِ فارقتِ السَّماءَ
وآثرتْ هذا المكانْ
داراً لها، واستوطنتْها وهْيَ تفترشُ الجِنانْ
وتقولُ: يا خيلَ الزمانْ،
ها نحنُ نبدأ؛
فالبدايةُ من هنا، وهنا سأعطي الصولجانْ،
فيكونَ من وِلْدي ملوكْ،
ويكونَ كهّانٌ تساورُهمْ شكوكْ
من فرطِ تقواهمْ،
وبنّاؤونَ باليدِ والبصيرةِ واللسانْ.

بِكْرٌ هيَ الأشياءُ تَحْلمُ أن تكونْ
فتكونَ بالأسماءِ يَنْطقُها البنونْ
ويُنمّقونَ لها الصفاتْ
ويُزيّنون بها الحياةْ
ويكلّمونَ اللهَ دونَ تملُّقٍ، أو شُفْعَةٍ،
وكأنهم أبناؤهُ المُتَألِّهونْ،
ويعمِّرونَ الأرضَ فهْيَ بما بنوا فيها بلادْ:
مدنٌ، وآلهةٌ، وكهّانٌ، وأبطالٌ شدادْ
ومواطنونْ
«سودُ الرؤوسِ» مُهَذّبونْ
وَرِعُونَ أكثرَ من رؤى كهّانهمْ
وأبرَّ منهم عندما يتعبّدونْ.
مدنٌ، وكلُّ مدينةٍ حلمٌ بألفِ غدٍ سعيدْ
وبكلِّ ما تهَبُ المواسمُ من حصيدْ:
ذهبٌ مُصَفّى في الحقولْ،
وغلائلٌ من فضةٍ في الليلِ تفترشُ المراعيَ والسهولْ،
والزرعُ أنضرُ ما يكونْ،
والضرعُ أغدقُ ما يكونْ،
ولكلِّ مجتهدٍ نصيبٌ في الحصادْ.
مدنٌ كثارْ
ومرافئُ اكتَظَّتْ بما جَلَبَ التجارْ
من لازوردٍ، أو عطورٍ، أو نُضارْ،
وبكلِّ ما حملوهُ من خشبٍ ومن حجرٍ لتزدهرَ الديارْ:
فسفائنٌ تأتي إليها من «مَلوخا» أو «مَكانْ،»
وقوافلٌ تترى عليها من بعيدٍ من بعيدْ
ممّا وراءَ الشمسِ والأفقِ المزوَّقِ بالوعودْ.
والكونُ، بعدُ، طراوةٌ وعذوبةٌ تحتَ اللسانْ
و«ذوو الرؤوسِ السودِ» منهمكونَ في تدوينِ تأتأةِ الزمانْ
شعراً، وتنظيمِ الوجودْ،
ولكلِّ مجتهدٍ نصيبٌ في الخلودْ.

لكنّها، وا ويلتاهْ،
مدنٌ مُسوَّرةٌ،
وكلُّ مدينةٍ تَخَذَتْ لها مَلِكًا تَجَبَّرَ وادّعى أنَّ الإلهْ
هو مَنْ حباهُ الملكَ، فهو مُفوَّضٌ في ما حباهْ
وغلا، فأعلنَ أنه «ملكُ الملوكِ،»
ولا مليكَ لهمْ سواهْ.
مدنٌ مبعثرةٌ،
وكلُّ مدينةٍ تبغي على الأخرى،
وتؤثِرُ نفسَها بجميعِ ما طَمحتْ إليهِ من أراضٍ أو مياهْ،
فإذا «الرؤوسُ السودُ» يَلْعنُ بعضُها بعضًا،
ويَقْتلُ بعضُها بعضًا،
فلا السُّفهاءُ يرتدعونَ،
لا الزُّهّادُ يقتنعونَ،

* - شاعر وناقد من العراق المحتلّ.

لا الحكماءُ يحتكمونَ،
كلٌّ يدّعي وصلاً بليلى،
وَهْيَ جاريةٌ تولولُ في حماهْ!
مدنٌ تَلُوب
من الشمالِ إلى الجنوبْ
فالموتُ داخلَها وخارجَها يصولْ،
كالغولِ يلتهمُ الفرائسَ في البيوتِ
وفي الدروبْ.
مدنٌ يحاربُ بعضُها بعضاً فتهلكُها
الحروبْ
وتدكّها دكًّا، فلا عمرانَ فيها،
لا معابدَ، لا مدارسَ، لا مراتعَ، لا
حقول.
وليسَ ثمةَ من عزاءْ
لِمُشَرّديها الهائمينَ سوى التفجّعِ
والبكاءْ.
أرأيتَ شعباً وهو يتّخذُ البكاءْ
طقساً،
ويبحثُ عن قتيلْ
يبكيهِ في كلِّ المواسمِ والفصولْ؟
أرأيتَ شعباً وهْوَ يُبدعُ للعويلْ
فنًّا،
يسمّيهِ «الرثاءْ»؟

هو ذلكَ الشعبُ المعذَّبُ لا سواهُ من
الشعوبْ
سَلْ «أورَ» عنهُ وكمْ لها في ما رثاها
من نصيبْ
وسلِ الطُفوفَ وكمْ بكى فيها على
ذكرى شهيدْ
فكأنَّه نَذَرَتْهُ «إينَنّا» لكي ينعى،
وكي يلدَ النُعاةْ
جيلاً فجيلاً، ثمَّ ينتظر الطغاةَ
أو الغزاةْ
كي يحملَ البلوى وينعى من جديدْ!
أفما لهذا الشعبِ من ثوبٍ جديدٍ
للحياةْ؟
أتظلُّ تَقْضمُهُ طواحينُ الحروبْ؟
أوَليسَ للأحياءِ من ريٍّ سوى ريقِ
النُعاةْ؟
أيظلُّ هذا السُّوسُ يَنْخرُ أكبدَ الباكينَ
جيلاً بعدَ جيلْ؟
أوَ ما هنالكَ للمحبَّةِ من سبيلْ
غيرُ التفجّعِ في المقابرِ والبكاءِ على
الطلولْ؟
تَمّوزُ مات؟!
أجلْ، ولكنَّ الربيعْ

يأتي إلينا كلَّ عامْ
ويفضُّ أختامَ الضروعْ،
ويَربُّ بالضَحِكاتِ أنساغَ الزروعْ،
ويضيءُ بالأقمارِ أكتافَ المعابرِ
والدروب،
فتخفَّ أجنحةُ الحبيبِ إلى الحبيبِ،
ولا ملامْ.
تَمّوزُ ماتَ؟
أجلْ، و«إينَنّا» قضتْ،
والعالمُ السفليُّ غصَّ بساكنيهِ،
ففيمَ ندفعُ بالمزيدْ؟
إنّا هنا الأحياءُ، نفعلُ ما نريدُ،
ونستطيعْ،
إنْ كانَ فينا مَنْ يحنُّ إلى جديدْ،
غيرِ اذّكاراتِ الحروبِ،
وغيرِ أنقاضِ الكلامْ.
فهلمَّ نَنْفض ذلكَ الإرثَ الجديبْ
عنّا، ونمتحن القلوبَ بما تؤمِّلهُ
القلوبْ،
ونعيد تشكيلَ الحياةِ بما تريدُ لنا
الحياةْ
كي نَكْتبَ الفصلَ الأخيرَ
بغيرِ ما اعتدناهُ من رخوِ الختامْ.

وادي الدموع

سوفَ لا أكتبُ إلاّ ما أراهْ

سوفَ لا أمحو سوى فاصلةٍ ما بينَ صوتي وصداهْ

وأردُّ القولَ بالقولِ على نفسي

إذا ما غمغمتْ: وا ضيعتاهْ!

سُرِقَتْ في الليلِ «ألواحُ القدرْ.»

سُرِقَتْ، فاضطربَ الكونُ ومادتْ بالبشرْ

سُرَّةُ الأرضِ، فعصفٌ وكسوفْ،

وغزَتْها من قرارِ العالمِ السفليِّ آلافُ الشياطينِ

صفوفًا فصفوفْ،

وفَشَتْ فيها الطواعينُ فصرعى بالألوفْ،

ومياهُ الأنهرِ اسودَّتْ بما ألقتْ به سودُ الحتوفْ،

وطغى الموتُ فما عادَ أحدْ

يسألُ العابرَ عن أُمٍّ لهُ لم يرَها، أو عن وَلَدْ

ضاعَ في الموتى،

ولم يبقَ شجرْ

ثابتًا في أرضهِ،

أو حجرٌ بينَ الحجرْ؛

فهو موتٌ متقنُ الصنعِ، وقتلٌ عبقريٌّ في زُمَرْ.

وقفَ الناعي على الأطلالِ واستسقى الغمامْ

ورَثى الأمواتَ والأحياءَ،

حتى صَدِئتْ كلُّ مراثيهِ وأعياهُ الكلامْ

فبكى، واستغفرَ اللهَ، وأقعى في الظلامْ.

ما الذي يعطيهِ للموتى وللأحياءِ نَوْحٌ وعويلْ

غيرُ ما يعطي ذليلٌ لذليلْ؟

منْ ترى يُقْنعُ أمواتًا بأنَّ الموتَ بُرْءٌ وسلامْ؟

مَنْ ترى يُقنعُ أحياءً بأنَّ العيشَ في أقبيةِ الوحلِ اكتمالٌ وانسجامْ؟

أيُّها الموتى،

أنلتمْ ما أردتمْ من سلامٍ في القبورْ؟

أيُّها الأحياءُ،

هلْ أبقى لكمْ مَنْ سَرَقَ «الألواحَ» شيئًا لِغَدٍ غيرَ القشورْ؟

صَمَتَ الأحياءُ والموتى،

وكانَ الصمتُ ناقوسَ الختامْ.

أبدًا، لنْ تَحْبلَ الأرضُ بنبعٍ أو شجرْ.

أبدًا، لن يصفوَ الماءُ، ولا الزهرُ يضوعْ،

أو ترقَّ الريحُ، أو تندى الضروعْ.

أبدًا، لن تَخْفتَ الآهاتُ في وادي الدموعْ.

أبدًا، لن يَرْقصَ الأحياءُ في ضوءِ القمرْ،

أو يغنّوا تحتَ زَخّاتِ المطرْ،

أبدًا، لن يهدأ الأمواتُ، أو يتّزنَ الكونُ،

و«ألواحُ القدر»

في يَدَيْ تنّينِ هذا العصرِ،

يُمليها ويطويها كما شاءَ، ويلهو بالجموعْ كيفما شاءَ: دُمًى دونَ خطرْ!

فمَنِ الصّنديدُ؟

مَنْ يصطادُ هذا الوحشَ؟

مَنْ يُرديه؟

مَنْ يسترجعُ «الألواحَ»

كي توقدَ في أعراسهِ كلُّ الشموعْ؟

لم يزلْ في الحُفَرِ السوداءِ نبضٌ ودبيبْ.

لم يزلْ في دارسِ الأطلالِ جمرٌ ولهيبْ

يَنْثران الشَّررَ المضمرَ وردًا في الدروبْ

ويُضيئانِ لمن يأتي السبيلْ.

لم تزلْ تومضُ في أقصى المدارْ
نجمةٌ خضراءُ كالعشبِ، وترنو في انتظارْ
لحظةَ المسرى إلى الوادي،
وتلويحِ الدليلْ.
لم يزلْ ثَمَّةَ مَنْ يَقْرعُ بابَ الصمتِ
في الليلِ الطويلْ.
لم يزلْ ثمَّةَ من يَبْحثُ عن مختطفِ
«الألواحِ» و«الألواح»
في جوفِ البراري والسهولْ.
لم يزلْ ثمَّةَ مَنْ يعرفُ ألاّ مستحيلْ!

أصحا الوادي على قرعِ طبولْ؟
أمُنادٍ صاحَ في الأحياءِ والموتى وما
أسمعَ رَجْعٌ من نِداه؟
سوفَ لا أكتبُ إلاّ ما أراهْ.
سوفَ لا أمحو سوى فاصلةٍ ما بينَ صوتي وصداهْ
وأردُّ القولَ بالقولِ على نفسي
إذا ما رنَّمتْ: يا فرحتاهْ!

شكرًا

إلى شاعر غير عراقي يقترح على شعراء عراقيين أن يشكروا المحتلين!

سنقولها :
«شكرًا»!
وماذا بعدُ؟
هل تصفو لكَ الأشياءُ، أو تحلو، بها؟
وهلِ الجديدُ سوى غبارٍ كانَ في جيبِ القديمِ؟
فكيفَ تطلبُ أنْ نبيعَ دمَ البلادِ بدمعِها؟
لسنا منَ الغيمِ المُحَمَّلِ بالضفادعِ والوحولِ،
ولا منَ النُّطَفِ المُدنَّسةِ الهجينةِ.
نحنُ غُرَّتُها، البلادَ،
فكيفَ تطلبُ أنْ نخاتلَ في محبَّتِها؟
ألأننا، كالماءِ، نقترحُ الحياةَ،
وكالرِّياحِ نُذيبُ ثلجَ الليلِ؟
أمْ تخشى أصابعَنا التي تفتضُّ
أختامَ البراكينِ الحبيسةِ؟
دَعكَ من علْكِ النكايةِ، فهو مرٌّ،
والثيابُ ثيابُنا،
وخُيوطُنا أَوْلى برَتْقِ خروقِ أوَّلِها وآخرِها،
وأمّا أنتَ فاستغفرْ لنفسكَ عُرْيَها.

ما كنتَ يومًا كاتبًا في «نفَّرٍ،»
أو راعيًا في «بابلٍ.»
ما كنتَ إلاّ ذلكَ المتفرّجَ الأعشى،
فكيفَ ترى، إذنْ، ما يَصْبغُ الأشياءَ بالدمِ والدخانِ،
ويُطعمُ الغربانَ من لحمِ الأوادمِ؟
دَعْكَ من سُمِّ الوشايةِ،
فالوشاةُ هنا جرادٌ،
لا مزيدَ على تَنَطُّعِهمْ،
وقدْ فاضتْ بهمْ سوقُ العمالةِ والبطالةِ.
فانتحلْ لكَ حرفةً أخرى،
إذا جاوزتَ سنَّ الشعرِ،
وانقطعَ البريدْ!

بغداد